

دور القرآن في تحقيق العبودية



قال ﷻ تعالى في الذكر الحكيم: (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَأَتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الأنعام / 155). وعن رسول ﷻ (ص) أنَّهُ قال: "أَفْضَلُ عِبَادَةٍ أُمِّتِي بَعْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الدُّعَاءُ". وعنه (ص) في حديث الثقلين المشهور قال: "إِنِّي تَارَكُ فَيَكُمِ الثَّقَلَيْنِ مَا إِن تَمَسَّكْتُمُ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا كِتَابِ ﷻ وَعِترتي أَهْلُ بَيْتِي وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرْتَدَّا عَلَيَّ الْحَوْضَ".

نلاحظ في هذه النصوص المباركة موقعاً متقدماً للقرآن الكريم بين العبادات والتكاليف التي أمرنا ﷻ تعالى ورسوله بها؛ حيث اعتُبرت قراءة القرآن الكريم أفضل العبادات، وأُمرنا باتِّباعه، وجُعِلَ التمسُّكُ به إلى جانب التمسُّكِ بأهل البيت (عليهم السلام) تكليفاً أساسياً لا غنى عنه لمن يريد الهداية والابتعاد عن الضلالة.

فالقرآن الكريم هو خطاب الربِّ إلى العبد وكلام الخالق مع المخلوق، وقد أودع فيه سبحانه وتعالى شريعته وحقائق دينه وأنزله للناس هادياً وسراجاً منيراً، وأمر نبيّه والأوصياء من بعده أن يُفَسِّروا آياته ويبَيِّنوا تعاليمه. فهو كلمة ﷻ التامة وإرادته الكاملة للبشرية في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

وهو كتاب الهداية الأوحى الذي يهدي إلى صراطِ ﷻ المستقيم: (وَنَزَّلْنَا عَلَیْكَ الْكِتَابَ تَرْبِيَّاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل / 89).

وهذا الكتاب الشريف هو الكتاب الوحيد في السلوك إلى ﷻ، والكتاب الأحدي في تهذيب النفوس وفي الآداب والسنن الإلهية، وهو أعظم وسيلة للربط بين الخالق والمخلوق.

وهو الحبل الممدود بين ﷻ وعباده، فمن أراد تحقُّقَ العبودية في وجوده فإنَّ القرآن هو الوسيلة وهو الغاية في آنٍ معاً؛

هو الوسيلة لأزّنه دلّنا إلى سبيل العبودية ﷻ تعالى وهو مظهر هداية ﷻ التامة؛ فإن كانت العبودية تعني التعلّق بالمولى وإرادته ففي القرآن الكريم كلّ ما يتعلّق بمراد المولى من عبده في هذه الحياة: (وَنَزَّلْنَا عَلَیْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل/ 89).

ومن جهةٍ أخرى هو غاية لأزّنه حوى جميع مراتب الكمال والغنى الذي لا حدّ له، فعن رسول ﷻ (ص) أنّه قال: "القرآنُ غِنَى لا غِنَى دُونَهُ ولا فَقْرٌ بَعْدَهُ".

وكلّ آيةٍ فيه تُمثّل درجةً من درجات الجنّة التي حوت كلّ كمال. فعن رسول ﷻ (ص) قال: "إذا جاء يوم الحساب قيل لقارئ القرآن: اقرأ وارق. فلا يكون في الجنّة من الدرجات إلّا بعدد آيات القرآن الكريم".

الآداب المعنوية لقراءة القرآن الكريم:

عن أمير المؤمنين (ع) قال: "البيت الذي يُقرأ فيه القرآن ويُذكر ﷻ عزّ وجلّ فيه تكثرُ بركته وتَحضرُ الملائكة وتهجره الشياطين ويُضيء لأهل السماء كما تُضيء الكواكب لأهل الأرض، وإنّ البيت الذي لا يُقرأ فيه القرآن ولا يُذكر ﷻ عزّ وجلّ فيه تَقَلُّ بركته وتهجره الملائكة وتحضره الشياطين".

وليس المقصود من قراءة القرآن الكريم تحريك اللسان به، ومراعاة مخارج الحروف فحسب، بل إنّ المقصد الأساسي يكمن في مراعاة الآداب والأحكام القلبية للوصول إلى المعاني الباطنية للآيات الشريفة. وفيما يلي نذكر نبذة عن أهمّ الآداب المعنوية لقراءة القرآن الكريم.

أوّلاً - التعظيم:

التعظيم أدبٌ ينشأ من خلال إدراك عظمة شيءٍ أو شخص، ويظهر في أقوال وأفعال الإنسان. وهو أمرٌ وجداني فطري مغروز في طبيعة البشر. وإنّ عظمة كلّ شيء في الحقيقة ترجع إلى كماله، وإلى مرتبته الوجودية. ولأنّ القرآن هو الكمال الذي لا حدّ له ومظهر أسماء ﷻ وصفاته، فإنّنا عاجزون عن الإحاطة به وإدراكنا لهذه المسألة هو أكبر تعظيم قلبي لكتاب ﷻ عزّ وجلّ.

إنّ ﷻ تبارك وتعالى لسعة رحمته بعباده أنزل هذا الكتاب الشريف لتخليص المؤمنين من سجن الدنيا المظلم، وإيصالهم إلى أوج الكمال والقوّة والإنسانية.

عن الإمام الصادق (ع) قال: "لَقَدْ تَجَلَّي ﷻ لَخَلْقِهِ في كلامه ولكنّهم لا يُدِصِرُون"، فقد حوى هذا الكتاب الحكيم جميع مراتب العظمة الممكنة في أيّ كتاب؛ فالكتاب أو المنزل هو ﷻ سبحانه، الذي عجزت العقول عن إدراك كنه عظمته وحامله هو جبرئيل أمين الوحي وملك الملائكة وهو عند ذي العرش مكين. أمّا شارحه ومبيّنه فهو الرسول الأعظم صاحب المقام الأكرم أعظم خلق ﷻ وأفضل أنبيائه ورسله، وخلفائه. أمّا وقت تنزيله فهو ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر.

لذا لا يُمكن الانتقال من ظاهر القرآن إلى باطنه إلّا مع استحضار عظمة المتكلّم والحضور عنده.

ثانياً - رفع الموانع وإزالة الحجب:

(فَدَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (المائدة/ 15-16).

فإنّ تعالى يقول: (مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ) (المائدة/ 16)، وهو شرطٌ لتلك الهداية العظيمة التي ستنتهي إلى الله: (إِنَّ رَبِّيَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) (هود/ 56). ونحن لم نراعِ شروطه التي تتطلب منذًا الطهارة المعنوية فكلّ دنسٍ أو رجسٍ في الباطن سيُشكّل مانعاً من عبور نور القرآن إلى الباطن.

وأهمّ الحجب التي تلوّث باطن الإنسان، وتمنعه من تحصيل الاستفادة هي:

1- رؤية النفس مستغنية:

هذا الحجاب ينشأ من تسويات إبليس ومكائده الكبرى، حيث يُزيّن للإنسان دائماً الكمالات الموهومة، ويُقنعه بها حتى يسقط القرآن الكريم من اهتماماته وأولوياته وبالتالي يسقط من عينه الكمال الحقيقي وسُبل تحصيله. فمثلاً، يقنع أهل التجويد بعلمهم إلى حدٍّ أنَّهُ تسقط من أعينهم جميع الأبعاد الأخرى للقرآن...

2- العقائد الباطلة:

منذ صدر الإسلام وإلى يومنا هذا، والتحريفات المتعمّدة تنصبّ على كتاب الله. فالحكّام الظلمة من جهةٍ والتيارات والمذاهب المختلفة من جهةٍ أخرى قاموا بإلقاء مجموعةٍ من الآراء الفاسدة والأفكار الباطلة حول القرآن الكريم، جعلت الاستفادة المطلوبة منه بعيدة المنال، وبهذا أضحى القرآن غريباً مهجوراً ومن جملة ما ألقوه في هذا المجال أن معرفة الله تعالى غير متيسّرة لأحد، وأن هذه المعرفة من المستحيلات..

3- الذنوب والمعاصي:

إنّ لكل عملٍ من الأعمال - صالحها أو سيئها - صورة في عالم الملكوت تناسب معه، وله صورة وانتقاش في النفس أيضاً، وعندما تصدر المعصية من الإنسان، ويتمادى في الذنوب، يتدنّس قلبه ويُظلم، ويقع بالتدريج تحت سلطة وتصرف الشيطان. عندها سوف ينسدّ سمع الإنسان عن المعارف والمواعظ الإلهية، ولن ترى العين الآيات الباهرة بل تعمى عن الحق وأثاره. مثلما قال تعالى: (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّغَهُمْ أَصْلًا) (الأعراف/ 179). فالقلب محلّ انعكاس أنوار القرآن وإن كان المحلّ منكدرّاً بظلمة الذنوب ومحجوباً بحجاب المعاصي لن يرى من القرآن سوى الألفاظ والحروف، بل قد يؤدّي ذلك إلى عدم رؤية القرآن كلياً.

4- حجاب حبّ الدنيا:

حبّ الدنيا يصرف القلب عن القرآن ويجعل فيها تمام همّته، فيغفل عن ذكر الله. وكلّما ازداد التعلّق بالدنيا وشؤونها ازداد حجاب القلب ضخامةً، فلا يرى صاحبه الكمال إلا في الأمور الدنيوية المادية. ولأنّ القرآن دعوة إلى الآخرة والكمالات المعنوية فسوف يراه مخالفاً لمصالحه وسدّاً أمام شهوته فيعرض عنه. وهذه عاقبة الإقبال على الدنيا وزينتها.

والمهم بعد التعرّف الإجمالي على هذه الحجب الشائعة أن نكتشفها في أنفسنا ونسعى لإزالتها، لأنّها ستبقى المانع الأكبر أمام سطوع أنوار القرآن في قلوبنا.

ثالثاً - فهم مقاصد القرآن:

هذا الأدب عبارة عن التوجّه والتعرّف إلى المقاصد الأساسية للقرآن الكريم، ليكون هذا الأدب مقدّمة للتدبّر والهداية إلى الكمال الحقيقي، ويوجد سبعة مقاصد أساسية في القرآن المجيد، هي:

1- الدعوة إلى معرفة الله: كما في قوله تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (النور/ 35)، (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (الحديد/ 3).

2- الدعوة إلى تهذيب النفوس: كما في قوله تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) (الشمس/ 7-10).

3- قصص الأنبياء والأولياء وكيفية تربيتهم: كما في قوله تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) (يوسف/ 3).

4- ذكر أحوال الكفار والجاحدين وعاقبتهم كما في قوله تعالى: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) (البقرة/ 86).

5- بيان قوانين طاهر الشريعة والآداب والسنن: كما في قوله تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) (البقرة/ 43).

6- ذكر أحوال المعاد واليوم الآخر: كما في قوله تعالى: (لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ) (آل عمران/ 198).

7- الاحتجاجات الربانية على الناس: كما في قوله تعالى: (لَوْ كَان فِيهِمْ آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتِ) (الأنبياء/ 22).

رابعاً - التفكير:

والمقصود منه أن يبحث ويتقصى عن المقصد من كل آية يقرأها. قال ابن تيمية: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل/ 44). في هذه الآية مدحٌ عظيمٌ للتفكير، لأن غاية إنزال الكتاب السماوي العظيم قد جعلت في احتمال التفكير. وهذا من شدة الاعتناء به، حيث إن مجرد احتمال صار موجباً لهذه الكرامة العظيمة.

وحيث إن مقصد القرآن الوصول إلى سبل السلام، والخروج من جميع مراتب الظلمات إلى عالم النور، والهداية إلى صراط مستقيم، كما قال سبحانه: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (المائدة/ 15-16)، فلا بد أن يصل الإنسان بالتفكير في الآيات الشريفة إلى مرتبة وحقيقة القلب السليم.

والتفكير هو تجسس بصيرة القلب للوصول إلى المقصد، وهو السعادة المطلقة التي تحصل بالكمال العملي والعلمي، فإذا وجد القارئ المقصد، وتبصر في تحصيله، انفتح له طريق الاستفادة من القرآن الكريم، وفتحت له أبواب الرحمة الإلهية.

خامساً - التطبيق (العمل بالقرآن):

في الحديث المروي عن رسول الله (ص) قال: "مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ وَرَبَّهُ أَعْلَمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ". إن تحقق الهداية القرآنية موقوفٌ على العمل. وهو تطبيق مضمون الآيات القرآنية بعد تعلّمها والتعرّف إليها. وكيفية التطبيق تتم باستخراج مفادها العملي وتطبيقه على نفسه. مثلاً، إذا قرأ قصة آدم (ع) وما جرى عليه، وفكر في سبب مطردة الشيطان من جناب القدس، مع تلك العبادات الطويلة والسجود الكثيرة، وسأل نفسه لماذا أخرج الله تعالى إبليس من جوار قدسه، بعد أن كان في مجمع الملائكة. سيعلم أن كثرة العبادة لا تشفع للإنسان، وإن الصفات الإبلسية التي هي التكبر والاستعلاء تكون سبباً للطرد والبعد. فهذا العجب صار سبباً لحب النفس والاستكبار، وصار سبباً لعصيان الأوامر الإلهية والتمرد على الحق تعالى.

عن رسول الله (ص) قال: "مَنْ قرأ القرآن ولم يعمل به حشره يوم القيامة أعمى

فَيَقُولُ يَا (رَبِّ ۖ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْصَبُ) (طه / 125-126) ، فيؤمر به إلى النار".

المصدر: كتاب بغير حساب/ سلسلة الحياة الطيبة